لا نزال فى حاجة الى الكلام !

نحن منذ أن نلنا استقلالنا القريب نتصايح من هنا ومن هناك بدعوات إصلاحية ومشروعات إنشائية وانتقادات اجتماعية . . . إلى آخر فنون القول وضروب الآراء فى لإصلاح العام .

وننظر فى بعض الأحيان فنجد أننا لم نحقق — فى عالم الواقع — شيئا مما أكثرنا الحديث فيه، ونرى كل بضاعتنا كلاما فى كلام، فنسخط على أنفسنا وعلى الكلام الذى لا يتجسم أعمالا وننهم طبيعتنا بالقصور وترميها بالعجز عن العمل... وهذا السخط يبدو هو الآخر فى صورة كلام !

ولكننى أزعم — بعد هذا — أننا لا نزال فى حاجة إلى الكلام ، وأننا لم نشبع بعد كلاما ، وأن هذ الكلام ليس ضارا بالدرجة التى ننفر منها ونتوجس ونتشاءم .

فنحن كالورثاء تركة ضخمة ولكنها مثقلة ، وقد ورثها فجأة وبدون استعداد سابق وعلى غير انتظار، فهو ما يزال ينبش هنا وينبش هناك عن كنوزها الكثيرة المبعثرة التى لا تزال بكرا لم تمس ، وكلما نبش فى كنز مطمور وجد فوقه وحواليه أثقالا وركاما تكاد الكنوز تضيع فى غمارها ، وهو يصيح كلما عثر على أحد كنوزه : ها هنا كنز ثمين . . . وهنا كذلك كنز آخر . . . وها هنا كنز ثالث . . . وهكذا يتصايح كالمذهول حتى يكشف كنوزه وذخائره كلها وينفض عنها الغبار والوحل والركام ، ثم يحصيها ويأخذ فى الانتفاع بها ... وهنا يأتى دور الأعمال !

ما نظرت إليه بعد الاستقلال إلا تذكرت ذلك الوارث الغنى المثقل التركة ، وإلا أحسست أن صيحاتنا فى سبيل الإصلاح وطرق الإنشاء هى عينها صيحات ذلك الوارث على غير انتظار.

وما من شك أننا نملك ذخائر وكنوزا لا زالت حتى اليوم بكرا لم تمس : ذخائر طبيعية واقتصادية وروحية لا عداد لها ؛ ولكننا مثقلون بما وقع فى الماضى من إهمال كاد يذهب بها جميعا .

عندنا الكنوز المعدنية من حديد وفسفور ونحاس وقوة كهربائية كامنة فى مساقط المياه وهى ثروات مخبوءة فى حاجة الى الاستغلال المنظم الذى يحيلها ذهبا وثروة للسكان .

وعندنا كنوز الأرض الخصبة التى أسرفنا فى بعثرتها بطرق الرى الخاطئة حتى كادت تتبدد وتعجز عن إنبات الذهب فى كل عام .

وعندنا كنوز التاريخ والجمال الطبيعى فى الآثار والمناظر ، ولكننا لا نحسن استخدامها فى جلب السائحين من كل واد ، بينما بلد صغير كسويسرة يكسب فى العام نحو اثنى عشر مليونا من الجنيهات من هذا الباب .

وعندنا بعد ذلك كله وقبل ذلك كله كنوزنا الروحية المطمورة فى نفوسنا وتقاليدنا وثقافاتنا الدينية والخلقية سواء فى ذلك القديم والحديث ، والعالم اليوم فى حاجة ماسة الى هذه الكنوز الروحية يقتات منها بعد ما نضبت موارده الروحية وجفت ينابيعه ، فلو استطعنا أن نستخرج كنوزنا المخبوءة ونظهره عليها لوجد فيها شبعا وريا بعد المعركة والصراع .

ولكن هذه الكنوز جميعا لم تكن فى أيدينا طوال ستمائة عام بل ألف عام ، كانت فى أيد أجنبية عنا تقوم بالوصاية علينا ، ولا تبيح لنا شيئا من المرانة على استخدامها ، بل كانت هى نفسها تجهلها لبعد روحها عن روحنا ونضوب معين تعاطف بيننا وبينها .

وقد صرفنا همتنا كلها فى فك الوصاية عن رقابنا ، واسترداد حقوقنا السياسية المهمة الغامضة فلم تنفت طول مدة الصراع الطويلة إلى هذه الكنوز المزوية عنا ، وبغتة وجدنا زمامنا فى أيدينا ووجدنا هذه الذخائر مبعثرة تحت الركام !

فنحن معذورون حين ندلى بعشرات المشروعات الاقتصادية ، وعشرات التوجيهات الاجتماعية والروحية ، ومهما تكن مختلفة أو متناقضة فهى دليل على اتساع ثروتنا المادية والمعنوية وتعدد ذخائرها ، فكل من يعثر منا على ذخيرة مخبوءة يصيح من أقصى المنجم : وجدتها ... !

إلا أن هذا كله لا يعفينا من البدء بالعمل المنظم بعد خمس سنوات طوال ، فقد جمعنا اليوم من المناجم الكثيرة ما يصح إحصاؤه وجمعه وتبويبه .

ولن يكون هذ العمل منظما بمعنى الكلمة ، حتى تجعله الأحزاب جزءا من برامجها الأساسية وتخصص له من الفكر والجهد ما كانت تصرفه فى النضال السياسى لا فى الخمسين سنة الأخيرة بل فى الخمسمائة عام الماضية على تفاوت فى درجات الجهاد .

أحل ينبغى أن توضع المذاهب الاقتصادية والاجتماعية فى رأس قائمة البرنامج الحزبية ، ويكون ذلك محور الانتخاب ، فتجد الأمة معنى لتعدد الاحزاب وللحياة البرلمانية بوجه عام ، وتنشط للذهاب إلى صناديق الانتخابات وهى شاعرة أنها تفصل خطة على خطة فى تصريف حياتها اليومية وتوجيهاتها الاجتماعية .

ومع هذا فلنتكلم ، فلن يذهب الكلام سدى ، ولكنه سيختمر فى الاذهان ، ويخلق تيارا تجد الأحزاب نفسها ذات يوم أمامه وجها لوجه ، فتضطر أن تعدل مواقفها وتعين برامجها وتأخذ فى العمل المثمر بعد الكلام الطويل .

نعم ، ولنتكلم حتى نجلى الطريق أمامنا للعمل ونختار أقصر السبل ، وحتى تشرب أرواحنا حب الاصلاح وتؤمن بضرورة الإنشاء ويقتنع من يطلب منهم البذل والتضحية أن هذا واجب لا مفر منه ، ويقبل من توضع لهم قواعد الإصلاح على الانتفاع به .

فذلك كله رهين بالكلام ، وليس الكلام شرا على الدوام .